والمتاهة كأصحاب الجمل ومن أشبه حيث يشكِّلون على الإسلام خطراً علَّه أخطر ممن سواهم من الكفار الرسميين[١].

ذلك، ففرض قتال أئِمة الكفر طليق على أية حال، فإنهم بطبيعة حالهم الشريرة يؤمُّون الكفر بكل بنوده السلبية للإيمان والإيجابية لنفسه، قتلاً للأنفس وطعناً في الدين بكل ما يملكونه أو يُمَّلكون من طاقات وإمكانيات في مؤاتية المجالات.

(١) نور الثقلين ٢: ١٨٨ في قرب الإسناد للحميري عن حنان بن سدير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم: كانوا من أئمة الكفر، إن علياً عليه السلام يوم البصرة لما صف الجمل قال لأصحابه: لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة هل تجدون علي جوراً في حكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفاً في قسم؟ قالوا: لا، قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فأقمت فيكم الحدود وعطلتها في غيركم؟ قالوا: لا، قال: فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث، إني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف، ثم ثنى إلى أصحابه فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة واصطفى محمداً صلى الله عليه وآله بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت، ورواه العياشي عن حنان بن سدير عنه عليه السلام أقول: مغتصبو الخلافة هم من أهل هذه الآية ولكن الملابسات منعت الإمام عن القيام بالسيف أمامهم.

وفي أمالي المفيد بإسناده عن أبي عثمان مؤذن بني قصي قال سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله: عذرني الله من طلحة والزبير، بايعاني طائعين غير مكرَهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثم تلا هذه الآية، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن وفي حديثه قال بكير: فسألت عنها أبا جعفر عليه السلام فقال: صدق الشيخ هكذا قال علي هكذا كان وفيه عن العياشي عن الحسن البصري قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه السلام على هذا المنبر وذلك بعدما فرغ من أمر طلحة والزبير وعائشة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: يا أيها الناس والله ما قاتلت هؤلاء إلا بآية تركتها في كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم . . .﴾ [التوبة: ١٢] أما والله لقد عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا علي لتقاتلن الفئة الباغية والفئة الناكثة والفئة المارقة.

فالقادة الأئمة هم بين أئمة الإيمان وأئمة الكفر، فلا بد لأئمة الإيمان برَبْعهم أن يقاتلوا أئمة الكفر بربعه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] فـ ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هنا ظاهرة بديل ضمير: «فقاتلوهم» عبارة قاصدة لموضوعية إمامة الكفر لفرض القتال مهما لم يكن نكث لأيمان وسواها.

وهنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ تعني - لأقل تقدير - الانتهاء عن إمامة الكفر فتنة وإفساداً على المؤمنين وسائر المستضعفين، ثم انتهاءً عن أصل الكفر، وإذاً فهم إخوانكم في الدين.

ثم ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ بعد ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾ تعبير قاصد إلى أن أيمانهم لم تكن أيماناً قاصدة صادقة، فإن طبيعة حال الأيمان هي الوفاء دون النكث، فالأيمان المنكوثة ليست في الحق بأيمان، وإنما هي قالتها دون حالتها وفعالتها، وصرف القالة في اليمين قالة غائلة.

هؤلاء أئمة الكفر وهم دركات، كما وأئمة الإيمان درجات عليا ها الأئمة من آل الرسول ﷺ، الأعزة عند الرسول وعلى حد تعبيره ﷺ: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش»[٢] و«الأئمة من المهاجرين»[٣].

وترى ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ تختص واجب قتال أئمة الكفر - فقط - بما إذا نكثوا وطعنوا، فغير المعاهد الطاعن لا يقاتل؟ ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ موضوعاً لـ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ تكفي دليلاً أن لها الموضوعية التامة الطامة في حكم واجب

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٢) مفتاح كنوز السنة بخ - ك ٩٣ ب ٥١ ومس - ك ٣٣ ح ٥ - ١٠ وتر - ك ٣١ ب ٤٦ وحم أول ص ٣٩٨ قا ٤٠٦، خامس ص ٨٦ و٨٧ و٩٣ و٩٤ و٩٥ و٩٦ و٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ و١٠١ و١٠٦ و١٠٧ و١٠٨ وط - ح ٧٦٧ و١٢٧٨.
(٣) المصدر ط - ح ٩٢٦ و٢١٣٣.

القتال، فسواءٌ في ذلك المعاهَد الناكث وغير المعاهَد ما دام الطعن في الدين بإمامة الكفر قائماً، فذلك - إذاً - حكم يحلق على كافة أئمة الكفر الطاعنين في الدين للطول التأريخي والعرض الجغرافي.

ذلك، ومن أبرز النكث للإيمان فالطعن في الدين هو نكث يمين الإيمان المدعى ارتداداً عنه جاهراً، مما يفت عضد الدين ويضعف ساعد اليقين حيث يخيَّل إلى بسطاء المؤمنين أنهم ارتدوا عنه بما وجدوا فيه من خلل فجحدوه لهذه العلل وما نجدوا، وهو طعن في الدين وقلوب الدينِّين، طعناً عملياً يعمل في إضلال البسطاء سراعاً، ودليلاً باهراً على الشمول إضافةً إلى ظاهرة العموم، أن ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ هنا بعد ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ فهو في الأصل نكث بعد التوبة، ثم يشمل كل نكث، ثم كل إمامة للكفر، وقد سبق ذلك النكث ما يعممه تماماً، فسابق ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ مع «إن تابوا» مرتين، دليل باهر لذلك التعميم.

فلا تختص ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ بمن يطعنون في الدين وهم كفار جاهرين، بل وأنحس وأنكى منهم كبراء بزعم الناس، يُظهرون الإيمان مضمرين الكفر ثم يرتدون، وذلك كاف في زعزعة إيمان البسطاء المستضعفين.

إذاً فنكث الأيمان يشمل نكث الإيمان - وبأحرى - لأنه أيضاً يمين من الأيمان، بل وأحرى مما سواه من أيمان، فقضية طليق ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ بنقض الأيمان والطعن في الدين هي وجوب قتال كل من يحمل مشعل الضلالة والطعن في الدين، ملحداً أو مشركاً أو كتابياً أم ومسلماً يحمل ما يحملون بل هو أخطر وأنكى، فأصحاب البدع الجاهرة، الذين يُبدعون خلاف الضرورة من شرعة الحق هم من أئمة الكفر، وترى إذا انتهى المرتد عما فعل وأبرز الإيمان، فهل يثبت قتاله بعدُ أم لا؟ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ حيث

تُنهي قتالهم لغاية انتهائهم، دليل نفيه عندئذٍ، اللَّهم إلَّا أن يدل قاطع الدليل على استثناء المرتدين.

وهل للكافر يمين لمكان ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ حيث النكث لها دليل واقعها؟ أم لا - لـ ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾؟ إن لهم يميناً ما لم ينكثوا، فحين نسمع منه يميناً لا نتأكد كذبه فقد نعامله معاملة صادق اليمين على حذر لأنهم - كأصل - لا أيمان لهم، إذ لا مولى لهم به يحلفون.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾:

هذه الآية بما بعدها تواجه ما حاك في نفوس ضعيفة لم يتعرق الإيمان بعد فيها، من تردد وتهيُّب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة الجاسمة القاصمة، ومن تعلل ورغبة وتَعلِّة في أن يفيء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل، ومن خوف على نفوسهم ومصالحهم، ركوناً إلى أيسر وسائلهم في مسائلهم.

فالقرآن يواجه هذه المشاعر بملابساتها الملبَّسة على أصحابها، والتعِلَّات والمخاوف المحلقة عليها، استجاشة لقلوب المؤمنين بذكريات وأحداث ورغبات صالحة، تذكرة بنقض المشركين عهودهم بعد إبرامها وسائر ما افتعلوه بحق الرسول ﷺ والذين معه.

وهنا سرد مختصر غير محتصر لثالوث أئمة الكفر: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ - ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ وكل واحدة من هذه الثلاثة تكفي في فرض قتالهم فضلاً عن الثالوث كله.

و﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ استفهام إنكاري ممن يتهاون ولا يتعاون في قتال هؤلاء الناكثين البادئين في الحرب وقد ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ مما يدل على مدى تعرق الكفر في نفوسهم النحيسة البئيسة.

١ - ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ مع الرسول - كما هو شيمتهم الشنيعة -: نقضاً لعهد الحديبية فـ «إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً... فقاتلوهم للضغن على رسول الله ﷺ...»[1] وكان ﷺ قد قبل من شروطهم ما حسبه الخليفة عمر قبولاً للدنية! ثم وفى لهم أحسن الوفاء وأدقَّه، ولكنهم نقضوا عهده ﷺ وخاسوا به بعد عامين لأول فرصة سانحة.

٢ - ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ مرات عدة، يوم الندوة، ويوم

(١) الدر المنثور ٣: ٢١٥ - أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا: كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش أن من شاء أن يدخل في عقد النبي ﷺ وعهده دخل فيه ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا: ندخل في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: ندخل في عقد قريش وعهدهم فمكثوا في تلك المداهنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً بماء لهم يقال له الوتير قريب مكة فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد ﷺ وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ وركب عمر وابن سالم عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات أنشده:

اللّهم إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه ألا تلدا
كنا والداً وكنت ولداً ... ثمت أسلمنا ولم نزع يدا
فانصر رسول الله نصراً اعتدا ... وادعوا عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن شئتم حسناً فوجهه بدر بدا
في فيلق كالبحر يجري مزبداً ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وزعموا أن ليس تدعو أحدا
فهم أذل وأقل عدداً ... قد جعلوا لي بكداء رصدا
هم بيتوا لنا لهجير هجداً ... وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم فما برح حتى مرت غمامة في السماء فقال رسول الله ﷺ: إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد وكتمهم مخرجه وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم.

الشعب، وليلة الفراش التي انتهت إلى الهجرة، ثم وكل أيامهم كانت تحمل هماً بالغاً قالاً وحالاً وفعالاً لإخراج الرسول ﷺ عن عاصمة الدعوة، وذلك أنحس وأنكى ما حصل منهم طول همومهم بخصوصهم وعمومهم، ثم ولم يكونوا يكتفون إخراجَه بإخراجِه عن مكة، بل وهموا بإخراجه أيضاً عن المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والاجتماع على قصده بالقتل، فهمهم لإحراجه في المدينة همٌّ لهم لإخراجه عنها كما أخرجوه عن مكة المكرمة.

٣ - ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدءاً بالقتال والنكال منذ بزوغ الدعوة، ومن ثم بعد الهجرة خلال بضعة أشهر، في حرب بدر التي أصبحت - خلاف قصدهم - بادرة القوة الإسلامية ضدَّهم.

فلقد بيتوا عليه في بيت الله الذي يأمن فيه القاتل والسارق، فمحمد ﷺ لا أمان له في ذلك البيت الأمين لأنه يدعو إلى الهدى، ويردهم عن الردى، بيتوا عليه على حريته وعلى دمه دونما تحرُّج ولا تذمم، وبكل تهرُّج، حتى أخرجوه عن مكة بعد كل ما أحرجوه، ثم أصروا على إبادته في مهجره بقيادة أبي جهل في بدر، ثم قاتلوهم بادئين في أحد والخندق، ثم جمعوا لهم في حنين ولا يزالون وكما قال الله:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[1] مما يبين الطبيعة الشركية النكدة اللئيمة.

وكما هم بدؤوكم في قصة خزاعة، والبادئ بالقتال يحق قتاله على أية حال.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ هؤلاء الأنكاد البعاد؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أنتم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فأتمروا بأمره ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ به ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

و«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»، فلا يُخاف في سبيل الله أيُّ مخيف إلا الله الذي يأمرنا أن نسلك سبيله دون خوف ممن سواه.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾:

هنا ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ دون «صدوركم» أو «صدور المؤمنين» ككل، مما يلمح بنزول الآية بشأن ناقضي عهد الحديبية حيث إن بني بكر وثبوا على خزاعة الداخلين في عقد رسول الله ﷺ وأثخنوهم قتلاً وجرحاً وتشريداً.

أجل ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ أولاء الناقضين، وبالنتيجة ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ القوية بالإيمان، وقلوبكم الندية بالإيمان ثم ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ كما أخزوا فريقاً من المؤمنين ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ بصورة قاطعة لا قِبَل لهم بها، ثم ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ مظلومين مهضومين ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ الغائظة على تلك الحالة المخزية المزرية ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ منكم مقاتلين ومن هؤلاء المظلومين المقتص لهم، ثم ومن الناقضين الذين قد يتوبون إلى الله عما نقضوا وأبغضوا الله ورسوله حين يرون نصراً كمؤمنين، إحساساً لهم أنهم منصورون بغير ظاهرة القوة الحربية، فتفتح بصيرتهم على الهدى.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل ما حصل ويحصل وما هو صالح أم طالح لكم ولمن سواكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بالعواقب المخبوءة وراء هذه التقدمات، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يأمر وينهى ويقضي ويقدر، ﴿حَكِيمٌ﴾ يقدر نتائج الأعمال والحركات والنيات.

ذلك، فطبيعة الحال تقضي بأن المؤمنين تغيظ قلوبهم بما يلمسون من مثل ذلك الكبت الشديد والنقض العنيد، فذلك العذاب بأيديكم المؤمنة

والخزي للناقضين ونصرتكم عليهم، إن فيها لشفاءً لصدورهم عما جرحت وضيقت وحرجت، وإذهاباً - بالنتيجة - لغيظ قلوبهم.

ولقد تجري هذه الآية فيمن يدعي الإسلام، وهو ناقض لعهده مفض يديه منه حيث يعامل المسلمين كما يعامَل الكافرون»[(١)].

وترى ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ لا تنافي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[(٢)] وإن الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل؟

العذاب المسلوب كما قدمناه هو عذاب استئصال وما أشبه بيد القدرة الربانية دون سيط الإنسان، ثم العذاب هنا ليس حسب الحساب المخصوص بالأخرى، إنما هو شطر ضئيل منها تتقدم هنا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والقتل والحصر والتشريد وما أشبه، كما الحدود والتعزيرات، هي عذابات مأمور بها بأيدي المؤمنين على المتخلفين عن شرعة الله تأديباً لهم وتأنيباً وردعاً وتقليلاً للفساد.

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٩٠ عن تفسير العياشي عن علي بن عقبة عن أبيه قال: دخلت أنا والمعلى على أبي عبد الله عليه السلام فقال: ابشروا أنكم على أحدي الحسنيين شفى الله صدوركم وأذهب غيظ قلوبكم وأنا لكم على عدوكم وهو قول الله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وإن مضيتم قبل أن يروا ذلك مضيتم على دين الله الذي رضيه لنبيه صلى الله عليه وآله ولعلي عليه السلام، وفيه عنه أبي الأغر اليمني قال: إني لواقف يوصفني إذا نظرت إلى العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شاكٍ في السلاح على رأسه مغفر وبيده صفيحة يمانية وهو على فرس أدهم إذ هتف به هاتف من أهل الشام يقال له عرار بن أدهم: يا عباس هلم إلى البراز، قال: ثم تكافى بسيفهما مليّاً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته إلى أن لاحظ العباس وهياً في درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي وخرّ الشامي صريعاً بخده وأمّ في الناس وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض فسمعت قائلاً يقول: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ﴾ [التوبة: ١٤] الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

ذلك «وقاتلوهم» هذا قد يمتد أمره إلى فتح مكة التي تجمع كل هذه المواصفات، فسائر الحروب الفاتحة لم تكن تحمل منها إلا يسيراً قصيراً، وإنما فتح مكة هو الذي حمل كل هذه المواصفات لقبيل الإيمان.

وهنا ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ في إذهابه رحمة عليهم خروجاً لقلوبهم عن التغيظ التضيق بما أصيبوا من مكائد الكفار، فهي رحمة صالحة لهم، وهناك غيظ آخر في ذهابه رحمة عليهم وعلى الآخرين الذين يجب كظم الغيظ عنهم لكونهم مؤمنين، وهذا مجال قول النبي ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ في الله»[(١)].

والقصد من جرعة الغيظ هنا الصبر عند الاهتياج، واللطم عند الانزعاج، وترك اتباع نوازع النفس إلى ما تدعوا إليه في تلك الحال من شفاءٍ غيظ، أو تنفيس كربٍ، أو إطلاق عقال، أو فعل مراقبة لله سبحانه تنجزا لثوابه، واحتجازا عن عقابه، فشبه ﷺ تلك الحال بالجرعة، كأن الإنسان بالكظم لها والصبر عليها قد ضاق بها مرارة، وأساغ منها حرارة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[(٢)] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[(٣)] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(٤)].

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (٩٦).
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾ لحالكم دونما ابتلاء وامتحان وتمحيص ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾[١] عَلْماً وعلامة بواقع الجهاد الذي هو علامة النجاح، كما أن تركه علامة السقوط، فلهذه المجاهدات المفروضة أبعاده، منها تميُّز المجاهدين الواقعيين عن المدعين الجهاد «يقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد».

و﴿جَٰهَدُواْ﴾ الطليقة هنا تعم الجهاد الأنفسي إلى الآفاقي والآفاقي إلى الأنفسي، وجهاد النفس هو أعظم، وهو أتم مهاد لجهاد سائر الأعداء، ولا يعني جهاد النفس قتل النفس الأمارة بالسوء، إنما هو جعلها سليمة أمام العقلية الإيمانية، خارجة عن طيشها وعيشها المتخلف عن شرعة الله، فتفسير جهاد النفس بقتل النفس غلط رائج دارج لا يعبأ به! ﴿جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ﴾ أية وليجة تلج في صفوفكم وصنوفهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ فالوليجة الربانية هي المعرفة التقية، والتقوى المعرفية أماهيه، الوالجة في قلوبهم والحاكمة في صفوفهم، ثم من الوليجة الرسولية تقبُل قيادته العليا من الله، ومن ثم الوليجة الإيمانية ولوج المؤمنين بعضهم في بعض، مندغمين مع بعضهم البعض صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وليس ذلك الامتحان ليعلم الله الذين جاهدوا منكم إلّا عَلماً لا عِلماً ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ف «يا معشر الأحداث اتقوا الله ولا تأتوا الرؤساء، دعوهم حتى يصيروا أذناباً، لا تتخذوا الرجال ولائج من دون الله أنا والله خير لكم»[٢] و«إياكم والولايج فإن كل وليجة دوننا فهي طاغوت - ند»[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٩١ في تفسير العياشي عن ابن أبان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ثم ضرب بيده إلى صدره.

(٣) المصدر عن أبي الصباح الكناني قال قال أبو جعفر عليه السلام: